العقل - المال - الجاه

للاستاذ الجليل محمد أحمد جاد المولى بك
المفتش الأول للغة العربية

[وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها]
قرآن كريم

[أقل مايجب عليكم لله ألا تستعينوا بنعمته على معصيته]
على بن أبي طالب

إن شكر المتفضل ثمرة إحساس أولى يستشعره ذوو الفطر السليمة ، والخصال القويمة . إذ حب المحسن مركوز فى الجبلة ، مستقر فى أصل الخلقة ، ثابت فى غرس الطبيعة .

أما جحد الجميل ، ونكران العرف ، وغمط النعمة ، فشذوذ فى الفطرة ، وجنوح عن الإحساسات الشريفة والعواطف النبيلة .

فأولو النظر البعيد والرأى السديد ، رأوا أن نجاتهم فى الاعتصام بحبل الله ، واللجوء إلى فسيح ساحته ، فعاشوا فى طمأنينة وأمنة ، وعزة ومنعة ، وأما من خبثت طينتهم وتكدرت طويتهم فأولئك قوم لؤمت طباعهم ، وانعكست أوضاعهم ، إذ كان عندهم موجب الشكر أداة الوزر ، ومهبط العرفان مبعث النكران ، مع أن النفوس الكريمة ، إذا لم تقو على مقابلة الإحسان بالإحسان لاتجنح إلى ردّه بالإساءة والعدوان .

وقد منح الله عطايا جمة ، وتفضل جل علاه ، فخصنا بالعقل ، وكرمنا بالمال ، وزيننا بالجاه فى الحياة . وأولى هذه النعم العقل ، إذ هو أعظم المواهب ، لاتغنى عنه نعمة ، ولا تقوم مقامه موهبة ، يصدر عنه العلم صدور الرؤية عن البصر ، والنور عن القمر ، والأريج عن الزهر .

فهنيئا لمن أعمله فيما يقرّبه إلى ربه ، من علم ينير له ولأمته السبيل ، أو اختراع يذلل لهم العمل ، أو كشف يوسع دائرة الأمل ، أو إحياء سنة ترفع النفس من حمأة الرذيلة إلى منازل العليين الأبرار ، وفوزا لمن هدى بعقله الضال ، وأرشد بفكره الحائر ، وسدد بنور يقينه خطى السائر .

ومن الجنوح بنعمة العقل عن وجوهها المشروعة ، شغلها بالأفكار السامة ، والمبادئ الضارة ، والعقائد الزائفة ، والمذاهب الهادمة ، التي إذا تفشت بمجتمع نخرت عظامه وحلت أخلاقه ونظامه ، وقوضت بنيانه ، وعجلت فناءه .

ومن كفران نعمة العقل نبذ الحق مع نصوع برهانه ، والخضوع للهوى مع ظهور بطلانه ، أو بذل الجهد في إبطال الحق ، والباس الباطل لباسه بتبرئة جان ، أو إدانة برىء ، أو تضييع حق على صاحبه ، أو إثبات شيء لغير أهله " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون " ؟

والمال : جعله الله أحد الشطرين اللذين تتحلى بهما الحياة بقوله جل ثناؤه " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " . وحث على السعي في اكتسابه بقوله تعالى : " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه " وقال عليه السلام : " اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا ، واحذر حذر أمرئ يخشى أن يموت غدا " .

ولما كانت الرغبة في المال فطرية قد تدفع المرء الى التهالك عليه ، والبحث عن الذهب حيثما وجد اليه سبيلا ، أوجب الله أن يطلب من الوجوه المشروعة : قال عليه السلام " أيها الناس إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : " يأيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم " وقال : " يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم " ثم قال : الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له ؟

وقد عنى الاسلام بالمال ، لأنه تصان به النفس من الامتهان ، وتغرس الكرامة في القلوب وتكثر الأصدقاء والأنصار ، وتدفع طوارئ الحدثان ، ويستعان به على طلب العلم والعمل والذكر والفكر ، وجميع وجوه البر .

لذلك كله أمرنا الله تعالى بالمحافظة على المال وسلوك سبيل الاعتدال في التصرف فيه فلا تفريط ولا إفراط ، ولا إسراف ولا تقتير ، قال تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " .

ومدح المعتدلين في الإنفاق ، وجعلهم في عداد عباده الذين يحبهم قال جل ثناؤه : " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " .

ونهى عن التبذير وذم المبذرين ، وجعلهم فى عداد الشياطين . قال تعالى : "ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا".

ومن كفران نعمة المال الضن بها على مستحقيها ، كمنع الزكاة ، التى فرضها الله على القادرين ، وهدد من شح بها على مستحقيها بأشد العذاب ، قال تعالى " ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير " .

ومن ذلك أيضا حرمان الأجير أجره ، أو نقص ما اتفق عليه مع أن النبى عليه السلام يأمرنا بإعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه .

ومن الحيد بنعمة المال عن سبيلها المشروع ، استعمالها وسيلة إلى إفساد الضمائر ، والجناية على الأخلاق ، بالرشوة ، و بالإدلاء إلى الحكام ، لاغتصاب الحقوق ، أو إهدار الواجبات ، والله تعالى يقول : "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون " .

ومن الرشوة الممقوتة الهادمة لكيان المجتمع ، ما ينفقه بعض المرشحين — للنيابة — ليتغلب على منافسه ، يغرى به الناخبين ، و يشترى ضمائرهم ، و يستعين بهم على وصفه بمحاسن يعلم الله أن بينه و بينها أمدا بعيدا ، واتهام منافسه بمساوئ ، لم يعرف بها ، وهى بصاحبهم أنسب ، و إليه أقرب : وفى هذا غرس للأحقاد والأضغان ، وإيقاظ لنار الفتن ، التى تفرق بين المؤمنين ، وتباعد الإخاء والإحسان والتعاون والتواد عن المواطنين .

ومن الضلال المبين إنفاق الأموال فى ارتكاب الموبقات وانتهاك الحرمات ، وسفك الدماء ، وإزهاق الأرواح ، والسعى بالدس بين الناس ، والاشتغال بها عن واجبات الله وحقوقه .

ومن آلاء المولى على بعض عباده المجدودين إنعامه بالجاه : وهو أن يكون للمرء حظ مرموق ، من مكانة رفيعة ، أو رتبة سامية ، أو منصب خطير ، تتوجه نحوه الآمال ، وحق هذه النعمة على صاحبها أن يكون لغيره قدوة صالحة ، يحذو حذوه ، وينهج نهجه ، ويقتفى أثره .

و إذا بلغ به جاهه مجالسة الملوك والأمراء يكون حريصا على قول الحق ، فإنه ليس أفضل عند الله من كلمة حق عند سلطان جائر .

وواجبه فى هذه الحال النصح والإرشاد ، إلى أقوم طريق بأسلوب رقيق كيس ، لا ينفر ولا يدعو الى الإصرار ، قال تعالى : "يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا" وأما إذا جارى فى الباطل فقد ضل وأضل .

وكما يجب أن يقول الحق فى غير ضعف ولا خوف ، وأن ينصح فى غير لوم ولا عنف ، يجب أن يشفع فى غير وزر ولا حد ، فان الشافع فى الخير مأجور ، والشافع فى الشر مأزور ، قال تعالى : " من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها " .

ولا ريب فى أن المنازل الرفيعة فى مساعدة الناس بالمال أو بالعلم أو بالجاه ، لأن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله ، "ومن نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه"

وحق على ذى الجاه أن يصلح بين الناس ، ويعمل على إزالة ما يقع بينهم من أحقاد ومنازعات ومخاصمات ، فقد قال رسول الله عليه السلام ؟ "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول ، تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين" .

وأما من يستخدم جاهه فى ظلم الناس ، بأى لون من ألوانه ، أو تسخيرهم فى منافعه ، بلا مقابل ، أو الحصول على ما ليس له حق فى نيله ، أو الحيلولة دون وصول حق إلى صاحبه أو محاكمة برىء ، أو براءة متهم ، أو إخلال بواجب ، أو تقصير فى حق ، أو فى أية معصية من معاصى الله — من يعمل شيئا من ذلك ، فقد كفر نعمة الجاه ، بل أحالها إلى شر نقمة . قال الله تعالى : " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال "إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار" .

وبعد ، فهذه نعم ثلاث من نعم الله الجليلة : العقل ، والمال ، والجاه ، كان عرفان الجميل يحتم علينا أن نقدم لله تعالى كفاءها من الشكر الجزيل ، بتوجيهها فيما خلقت له من مقصد نبيل ، لا أن نتخذها أداة المعصية ، كما قال الامام على كرم الله وجهه : " أقل ما يجب عليكم لله ألا تستعينوا بنعمته على معصيته " . وفقنا الله إلى سواء السبيل باتباع النبى الكريم .

محمد احمد جاد المولى